

في نور محمد فاطمة الزهراء

على مدى الرحلة النبوية الشاقّة إلى «يثرب» عاشت الزهراء كمن تراوحت بها الأيام بين اليقظة وبين المنام، في نهارها كانت في حلم أزهر، وضيء الرؤى، مستنير الصدر، تشرق ملامح اليُمن والخير على صحائف مراياها، وفي ليلها كانت في صحوة، توشك بوعيتها الحالم، وحسّها الشفاف، أن تسمع في إِبّانها، وتشهد ما لا تستطيع لقطه آذان، ولا رَمَقه عيون. غير أنّ الأيام كانت بطيئة، تتهادى في السير والأماسي[785] كانت أبطأ، تكاد لا تسير. والوقت طويل كالدهر ... وهي تمضي بقلبها، تتابع انطلاق أبيها على طريقه المفروش بالخطر، خطوةً خطوةً، بل شبراً شبراً، وفتراً وراء فتر. وكانت مكة كلّها في هرج محموم ... اللغط[786] يضطرب فيها بسادتها بين القطع والحدس، وبين صدق الحقائق وشلح الأوهام، بل كانت ثرثرتهم أصدق تعبيراً عن أمانهم منها عن الواقع الذي كانت تشهده حينئذ المفاوز والمغارات والجبال والرمال بل كانوا كثيراً ما ينحرفون! ثم انتقلت العدوى منهم، فإذا هذا الذي يخالون أو يعلمون ينتشر منهم في البلدة الحرام طنوناً ومشاعر وخیالات، تصكّ كلّ أذن، وتملأ كلّ خاطر، وتتواثب على الألسنة والشفاه كلمات وعبارات. فليس للقوم مَعجَبة تذهل سوى تسرّب محمد من بين شفرات سيوفهم المشرعات تسرّب النسمة الرُخاء[787]، وليس لهم دون طفرهم به شاغل أو رجاء. وكما تعقّب به أصحاب نغماتهم وثأرهم في الفلوات، راح أشرافهم وسادتهم يتعقّبونه في الأخبار ... فلكلّ مرحلة من رحلته المعمّاة هذه لديهم نبأ، ولكلّ خطوة حديث،